لقراءة ختمة (١ واشمل الجامع في هذه الليلة كما يشمل في نصف شعبان. وكان الذي اخبر السلطان انّ بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الامر في نفسه وتربّص لهُ. فلمّا قبض السلطان على لاجين (٢ في عيد الفطر من السنة المذكورة خاطب بيدرا السلطانَ في القبض على بيبرس طقصوا فقُبض (٢ عليهِ مع لاجين لانهُ كان قد تزوّج ابنتهُ (ستاتي البنية)

خريدة لبنان

(للاب هنري لامنس اليسوعي)

(تابع لما قبل)

هذا ولم يتفك طلاّب انيسة عن ملاحقتها. وانّما توقّف فارس عبّود وحدهُ عن الالحاح لمّا رأى ثبات عزمها. لكنهُ عمد الى حيلة تنغّصت عيشها. فانهُ دنا منها ذات يوم وفي يدهِ رسالة حاشيتُها سوداء وقال لها: قد وصلت اخبار عن حنّا الطويل

فلما سمعت انيسة ذكرَكَ برقت عيناها وسألت قائلة: ما يكون الخبر؟ فاجاب فارس بمظاهر الحزن الشديد: ما هو خبر سارّ

— اهو مريض؟

— يا ليته... لكن..

— أفهمت؟ قل بحياتك قل لي الحقيقة. لا تخفِ عني شيئًا

فلم يكن من فارس الّا انه نشر تلك الرسالة وقرأ مضمونها. وكانت من احد انسباء حنّا غنطوس المقيم في الاسكندريّة وهو يقول فيها ان المركب الانكليزي الذي سافر عليه حنّا

---

١) قراءة الختمة هي رتبة دينيّة عند المسلمين يُقرأ بها القرآن على تمامهِ

٢) لاجين هو حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير احد امراء الملك الاشرف قبض عليهِ سيّدهُ في دمشق مع الامراء سنقر الاشقر وجرمق وبكتوت وبيبرس طقصوا واعتقلهم مدّة في مصر ثم بشفعهم الّا انّ وتر الامير لاجين قُطع فنجا من الموت ثم اتّفق مع الامراء على قتل الملك الاشرف. واستولى على السلطنة بعد الملك العادل كتبغا سنة ٦٩٦ (١٢٩٧) وقتل سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩) قتلهُ المماليك

قد غرق وان كلّ الركاب هلكوا وان الربان مع بعض الملاّحين تمكّنوا وحدهم من النجاة وكان وجه انيسة وقت القراءة قد علاه اصفرار الموت وكل جسمها يرتجف . فقال فارس بكل فظاظة :

لم يعد لكِ اذن من رجاء . فانظري في ما تعتمدين . فان قلبي لم يزل على حاله وغماً عن رفضكِ في الماضي . فانتِ الآن فقيرة يتيمة لا سند لكِ ومع ذلك اني اعرض عليك اليوم كمن قبل ان تكوني شريكتي في مالي وبيتي وارزاقي . فهل تقبلين ؟

فلما سمعت انيسة هذا الكلام عادت الى نفسها وكفكفت دمعها وقالت لهُ بمنتهى العزم :

انت يا فارس اظهرت في كل آن الصدق والمروءة وطالما دفعت عني شرّ المضطهدين . وافضل وسيلة لأبدي لك شكري هي ان اخاطبك اليوم بصراحة . اعلم يا فارس اني لست مُطلَقة الحرّية فقد حلفتُ لخالي انني انتظر رجوعه . فلا أُخالف وعدي ولو قُضي عليَّ الصبر ثلاثين سنة . والآن اكرّر امامك اليمين اني اثبت على عهده ولو تزلت الى قبري . انما قلبي يحدّثني انّ خالي لم يمت وانه لا ريب يعود

فلما تأكد فارس ثبات عزمها زيّنت لهُ مروّتهُ ان لا يعود الى ملاحقتها . وقد أُعجب بشهامتها فقال لها بصوت التأثر :

انيسة انك حرّة وليس لي عليك حق . ولكن اذكري دائماً ان فارساً عبودًا مخلصٌ لك وانهُ يجود في سبيلك بكل عزيز ليبرهن لك عن وداده

وفي الواقع ان فارساً لم ينفك من ذلك الحين عن الاحسان اليها

٨

وفي تلك الاثناء كانت انيسة ساكنة عند احد الجيران المسمّى ناصراً . فاتّفق ان ابنه عاد من مصر مصاباً بمرض العيون وما مضى على رجوعهِ خمسة عشر يوماً الّا عُلي بالعمى . وكانت انيسة ترثي لحاله فتسهر عليه في مرضهِ وتعتني بهِ وتلازمه رحمةً بهِ حتى انتقلت اليها العدوى وفقدت البصر . . . وقد مات ناصر وسافر اولاده . فطلبنا حينئذٍ من انيسة ان تسكن معنا ووعدناها اننا نحبها ونخدمها طول العمر فقبلت طلبنا . فاحلف لك ياخواجا انه مضى عليها في بيتنا اكثر من ستّ سنوات ولم تكلّف علينا شيئاً وليس لنا في ذلك ادنى فضل فهي لطيفة رقيقة قنوعة . وحياتك ياخواجا انها قديسة حقًّا ويكفينا ان نلقي اليها النظر حتى نحتمل بصبر كل اكدار المعيشة ونصنع الخير . فاولادنا يحبونها حبًّا شديدًا ويكرمونها

كما يُكرَّم عبيد الله وتراهم يتسابقون الى خدمتها ويتنافسون لعمل ما يرضيها . . .

فتنهد المسافر وقال : انيسة تتسوَّل

فتوهَّمت المرأة انهُ يوجِّه اليهم اللوم فقالت : اعلم انها تتسوَّل ياسيدي . على اننا لسنا المذنبين . فلا يخطر ببالك اننا نسينا فضل انيسة علينا . وكنا نحب ان نقاسي الجوع كلنا ولا تخرج للاستعطاء . ولكن ما الحيلة . فاننا بذلنا جهدنا حتى منعناها التسوُّل فامتنعت مدَّةً حتى كثر عدد اولادنا . فافتكرت انيسة انَّ وجودها يُثقل علينا وطلبت ان نسعفنا بطريقة من الطرائق . فلم تجد وسيلة حزنت جدًا حتى مرضت . فاخذت تبكي وتطلب الينا ان نسمح لها بالتسوُّل . فلم نرَ بدًّا من اجابة طلبها

وعلى كلٍّ ياسيدي ليس ذلك عارًا على ابنة ضريرة . وان نكن فقراء فليس والحمد لله يعوزنا شيء . وغالب الاحيان تجيرنا على ان نقبل منها تمامًا تجمعه . ولا يمكننا ان نبقى معها دائمًا في نزاع . ولكن ما تأخذه بيدٍ نردُّهُ عليها بالأخرى اضعافًا فاننا ولو على غير علم معها نكسوها ثيابًا افضل من ثيابنا ونقدم لها طعامًا احسن من طعامنا وكل يوم نقدم لها شيئًا زائدًا . فالآن مثلًا تريد على عشائها بيضتين . امَّا ما يبقى معها من صدقات المحسنين فانها تحفظهُ لاولادنا حتى يكبروا كما فهمتُ ذلك من معنى كلامها . حقًّا ياخواجا مثل هذه القديسة تستحق اعظم مكافأة على حسناتها ولكن لسوء الحظ نحن عاجزون عن مقابلتها بغير الشكر

هذا والمسافر يصغي كل الاصغاء الى تفاصيل الحديث لا ينطق ببنت شفة ولا يبدي حركة . بيد انهُ كان يدخن بالنارجيلة وثغره يفترّ ابتسامًا وعينهُ تترقرق بدموع الفرح ويدهُ تلاطف الصبيَّ وكلُّ ملامحهِ تدلّ على ما غامرهُ من التأثر وداخلهُ من الحبور

فصمتت المرأة واقبلت على منزلها تبرمهُ . فبقي المسافر ساعة وهو غائص في بحر الافكار السارَّة ثم ترك الصبيَّ ومشى الى الحائك وقال لهُ : دع عنك شغلك هذا

فلم يفقه الحائك معناهُ وبث في حيرةٍ من لهجتهِ

فصاح المسافر : دع عنك هذا النول ومدَّ يدك لأُصافحها ياصاحب معمل الحرير

فكرَّر الحائك باندهاش : انا صاحب معمل الحرير ؟ انك تمزح يا سيدي

— هيَّا واطرح هذا النول فاني اهبك معملًا كامل المعدَّات تُدير دواليبهُ آلةٌ بخاريَّة . وكأني اراك لا تثق بكلامي مع اني لا انطق بغير الحقيقة

قال هذا واخرج من جيبه قبضة دنانير واردف قائلًا :

ليس ما يمنعني من ان اعطيك هذا المال في الحال . ولكنّك احبّ اليَّ وارفع في عيني من ان اضع في يدك ذهبًا . فانني اجعلك صاحب معمل عظيم واهتمّ كل الاهتمام بمستقبل اولادك فلا ينقدهم شيء حتى بعد موتي . والفضل في ذلك لأتيسة . فانكم احسنتم الى الضريرة واويتموها واكرمتم مثواها واحببتموها . فانا خطيبها اكافئكم عنها فابرهن بصنيعي هذا على ان الاحسان لا يضيع . لقد اخذتم بنادر انيسة في الضراء فيحق لكم ان تشاركوها في السراء . وما كانت انيسة لتهجركم . يا صاحب المعمل لسنا نفترق عنكم مدى الحياة

قال هذا وقبض على يد الحانك يصافحها ويهزّها بشدّة كما هي عادة الاجانب عند المصافحة . فتبادل الحانك ولمرأته نظرة التأثر ولم يقويا على ادراك معناه حقّ الادراك . فحاول المسافر ان يزيدهما ايضاحًا واذا ببطرس الصغير جذبهُ بثوبه كأنّهُ يرغب في ان يقول لهُ كلامًا ذا شأن

فسألهُ الرجل : وما لديك يا حبيبي ؟

فاجاب الغلام : يا سيدي حقًا قد جاءت الساعة التي فيها تعود انيسة فهل تريد ان اذهب للاقائها فابشّرها بقدومك

فاخذ الرجل بيد الصغير وسار بهِ نحو الباب قائلًا : هيّا . وسير امامي نحوها

وهكذا خرج مع الصبيّ واسرع يوسع الخطى في القرية . فلما شاهدهُ اهل القرية على تلك الحال بزوا من البيوت رجالًا ونساء فرأوا بطرس الصغير مرتديًا بثوبه القصير حافيًا حاسر الرأس يطفر الى جانب الغريب قابضًا على يده يكالمهُ ويمازحهُ

فاخذ منهم العجب مأخذه ولم يكونوا يعقلون ما هي العلاقة بين الصبيّ وهذا الخواجا الغني الذي عدوّهُ اقلّما يكون تنصلًا . ومن يصف عظيم اندهاشهم لمّا رأوا الرجل انحنى نحو الصغير وقبّلهُ

فازدحم الواقفون بالابواب وكثر الحدس والتخمين . وكان للنساء من الحديث النصيب الاوفر . وذهب القوم مذاهب شتى اقربها الى الصواب هو ان هذا الخواجا الغنيّ او القنصل خطر لهُ ان يتبنّى الصبيّ فسار بهِ ليمتني بتربيته . وذلك امرٌ ليس بالنادر . والحقّ يقال ان بطرس ابن الحانك سركيس كان اجمل صبيان الضيعة يستميل اليهِ القلوب بعينيه الزرقاوين ولوائح الذكاء والنجابة البادية على محيّاه الصبوح . ولكنّ بعض العقلاء لاحظوا

انهُ لمن المستغرب ان يتبنّى الخواجا الصبيّ ويسير به حافيًا

ولم يمضِ القليل الّا اصبح اهل الضيعة في الطرق لا يشغلهم شاغل عن الحديث في هذا الامر وبودّهم لو يسألون الغريب ايضاحًا ولكن لم يكن منهم مَن يجسر على السؤال. فكلّهم تهيّبوا ممّا رأوا من طول قامته وكبر قبعته ولم يخطر لاحدٍ منهم ببال ان الرجل ابن الوطن . . .

٩

وبينما هم في قيل وقال كان الغريب يجري حثيثًا لا يلوي على عنان. وقد خُيّل لهُ ان القرية كلها اضاءت بنورٍ سماويّ فتراءت لهُ بمشاهد لم يجد لها مثيلًا في المدن والعواصم التي زارها في اسفاره. وقد لاحت الرياض لعينيه مكتسية بحلّة خضراء بهيجة وزفّ اليه النسيم نفحات زكية تنعش القلوب. وبدت لهُ البيوت الحقيرة بمظهر العظمة والجمال. وكأنهُ شُغل عن الصبي فمال بكلّيته الى دواعي الفرح والنعيم وقد شخصت عينهُ الى مكانٍ بعيد كانّ بصرهُ يحاول ان يخرق حجابًا كثيفًا من شجر التوت يخفي عنهُ منعطف الطريق. واذا بالغلام يجذبهُ بشدّة ويهتف قائلًا: هناك. هناك. انيسة مع اختي روزة

واذا بشبح ابيض ظهر بين خلال التوت ثمّ تقرّب فرأى المسافر ابنةً ضريرة لم تَعُد في مقتبل العمر تقودها طفلةٌ في الخامسة من عمرها

فما وقعت على الضريرة عين المسافر الّا وقف في مكانهِ لا يتحرّك وتأمّل بحزنٍ بتلك المسكينة وهي تمشي الهوينا نحوه . . . أفتلك هي انيسة المحبوبة . . . أفتلك هي الفتاة الجميلة التي لا تزال مطبوعة على صفحات قلبهِ صورتها اللطيفة. بيد انهُ لم يكن الّا اخفّ من ارتداد الطرف حتى بادر مسرعًا الى الفتاة ولمّا دنا منها لم يتمالك ان صاح: انيسة انيسة

فما سمعت الضريرة صوتهُ حتى شعرت في جسمها بهزّة كادت تسقط بسببها مغشيًّا عليها ثم تركت يد الابنة الصغيرة ومدّت ذراعيها الى الامام كأنها تطلب شيئًا وصاحت: حنّا. حنّا. وركضت الى ذاك الذي ناداها وفي يدها صليبٌ من الفضة اخرجتهُ من صدرها واشارت اليهِ بحركة لا توصف ووقعت بين ذراعي حنّا غنطوس. فحاول هذا ان يعانقها بزيد الشوق فمانعتهُ بلطفٍ واذ ساءه امتناعها امسكت يده وقالت:

يا حنّا. لا اقوى على مثل هذا النعيم . . . لكنني عاهدت الله . . . فهيّا بنا الى المقبرة فلم يدرك الرجل لها غاية. غير انهُ فهم من لهجتها انّ لذلك سببًا خطيرًا فلبّى

طائعاً. وسار بها الى المقبرة وهو لا يبالي بالقرويين الذين توافدوا من كل صوب واحدقوا بهما

فمضت به انيسة الى احدى زوايا المقبرة ودنت من بلاطة ضريح قد غار نصفها تحت التراب فاومأت بيدها اليها وقالت: هنا رقدوا. فتهم معزى كلامها وانحدرت من عينيه الدموع

فاردفت انيسة قائلة: اتذكر يا حنا ملتقانا هنا في يوم من ايام الربيع لخمس وعشرين عاماً مضت. لقد كنت في تلك الايام اتمتع بنور الشمس . . . فكانت الطبيعة حينئذٍ كأنها في جذل والزهور تبسم عن ثغرها الفتان بين القبور والطيور فوق اشجار المقبرة تغرد طرباً. ونحن وحدنا كنا فريسة الاحزان. أتتذكر ذلك ؟

— اذكره كأنه جرى يوم امس

— كنا نذرف الدموع لانك كنت عازماً على السفر الى الاقطار الشاسعة. فاستحلفتني بحق امك التي احببتها كأمي. ان انتظر رجوعك فوعدتك بذلك وقبلت منك عربوناً على العهد بيننا هذا الصليب الفضي. أتذكر يا حنا

فلم يجر الرجل جواباً وكادت تخنقه العبرات. وهو الذي لم يعبأ بالاخطار والاهوال اصبح يبكي ويشهق كالطفل

فقالت انيسة: لم يمض عام الا جئت الى هذا المقام في تاريخ يوم سفرك لأجدد العهد. وقد جددته اكثر من عشرين مرة. ولو طالت غيبتك ايضاً لما أخلفت لك عهداً ولا ظننت بك سوءاً. واليوم لا يسعدني الدهر بان امتع ببرآك عينيَّ بيد انني اجدك قريباً مني واسمع صوتك الشجي كمن ذي قبل. فكفاني نعيماً يا الهي. وما انا باهل لمثلها نعمة. فلنشكرنَّ الله يا حنا على انه جاد بجمع شملنا بعد مرّ الفراق. هيا نجثو ونستمطر غيث الرحمات على من رقدت هنا تحت الثرى وهي تراانا من العلى وتستمد لنا البركات

قالت هذا وجثت على ركبتيها وتمت بلاطة الضريح فاقتدى خطيبها بها. فهتفت قائلةً: صلِّ صلِّ فقد عاهدت الله على ذلك

ثم رفعت يديها نحو السماء وصلّت بصوتٍ منخفض ثم نهضت ونهض حنا فعانقته وضمته شديداً الى صدرها فخارت قواها لما عراها من التأثر ووقعت بين يديه. ولولا دموعها المدرارة وتبسم ثغرها لخيل للرائي ان روحها فارقت جسدها

وكان بطرس الصغير ينظر بفرح الى هذا المشهد ويصفق بيديه طرباً ويصيح قائلاً: هذا حنا الطويل. هذا حنا الطويل

(ستأتي البقية)